رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حق الله على عباده[١]

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤخرة الرَّحْل، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبادِ عَلَى اللهِ» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شيئًا»[٢]. الحديث.

اتفق على روايته عن معاذ إماما الدنيا في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في كتابيهما الصحيحين، اللذين هما أصح وأشهر وأبرك وأفضل كتابين بعد كتاب الله تعالى.

والحديث أفاد أن لله على عباده حقًّا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وهذا أمر تواطأت عليه الفطر والعقول والكتب السماوية والأديان الإلهية، وإن اختلفت فيه مشارب الناس وأهواؤهم، فأسعدهم من اهتدى إليه مسترشدًا بنور الفطرة وهداية الوحي وحسبنا في ذلك آخر كتب الله المنزلة وهو كتابه المجيد وما بينه من سنة رسوله الأمين ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[النساء: ٣٦].

وقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وعبادة الله أمر جامع لما يحبه الله من عباده ويرضاه منهم، يدخل فيها كل ما تقرب الناس به إلى الله من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج، وصدقة، ونذر،

---

(١) مجلة الإصلاح – العدد الثاني – ١٥/ ٣/ ١٣٤٧ هـ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

وذبح، ودعاء، واستغاثة، وتوكل، وخوف، ورجاء.

قال الإمام شمس الدين ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين»[1]:

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب: انتهى إلَى هاتين الكلمتين – يعني: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾–، وعليهما مدار العبودية والتوحيد.

وهُما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالَى وهو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونصفهما لعبده وهو ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم قال[1]:

و«**العبادة**» **تَجمع أصلين**: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولَمْ تكن خاضعًا له، لَمْ تكن له عابدًا. ومن خضعت له بلا مَحبة، لَمْ تكن عابدًا له، حَتَّى تكون مُحبًّا خاضعًا. ومن ههنا كان المنكرون مَحبة العباد لربِّهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه مَحبوبًا لَهم–، بل هو غاية مطلوبهم، ووجهه الأعلى نِهاية بغيتهم –منكرين لكونه إلهًا، وإن أقروا بكونه ربًّا للعالَمين وخالقًا لَهم، فهذا غاية توحيدهم. وهو توحيد الربوبية، الذي اعترف به مشركو العرب، ولَمْ يَخرجوا به من الشرك، كما قال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، ولِهذا يَحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

ثم تكلم الشيخ على الاستعانة بنحو هذا الأسلوب العذب والمنهل الصافي، وبين النكتة البليغة في تقديم العبادة على الاستعانة، وتقديم المعبود

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨)، وما بعدها.

المستعان على فعل العبادة والاستعانة بكلام شهي، فارجع إليه إن شئت.

ثم قال[١]:

إذا عرف هذا؛ فالناس فِي هذين الأصلين -وهُما العبادة والاستعانة- أربعة أقسام:

أجلُّها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بِها؛ ولِهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب سبحانه وتعالَى: الإعانَة على مرضاته، وهو الذي عَلَّمه النَّبِيُّ ﷺ لِحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: «**يا معاذ، والله إنِّي لأحبك. فلا تنس أن تقول فِي دُبُر كل صلاة: اللهم أعنِّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»[٢].

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بِهذا المطلوب. وجَميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه-[٣]: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال الله العون على مرضاته، ثُمَّ رأيته فِي الفاتِحة فِي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومقابل هؤلاء: القسم الثانِي: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهُم واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه. فإنه سبحانه يسأله من فِي السماوات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه ويَمدُّ هؤلاء وهؤلاء.

وأبغض خلقه: عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٨)، وما بعدها.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٢)، وأحمد (٥/ ٢٤٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٦٩).

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى لابن قاسم (١/ ١٧٥).

ومتعه بِها، ولكن لما لَمْ تكن عونًا له على مرضاته. كانت زيادة له فِي شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولَمْ يكن عونًا على طاعته: كان مبعدًا له عن مرضاته، قاطعًا له عنه ولا بُدَّ.

وليتأمل العاقل هذا فِي نفسه وفِي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومَحبته له، فيمنعه حِماية وصيانة وحفظًا لا بُخلًا.

وهذا إنَّما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه. فيظن - بِجهله- أن الله لا يُحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حَمله على الأقدار، وعتابه الباطن لَهَا. كما قيل:

وعاجز الرأي مِضياع لفرصته ... حَتَّى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتِي، والأمر ليس إلَيَّ؟ والعاقل خصم نفسه. والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا معينًا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لَمْ تَجد بُدًّا من سؤاله، فعلقه على شرط علمه تعالَى فيه الْخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة؛ بل استخارة من لا علم له بِمصالِحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلَى تفاصيلها، ولا يَملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلَى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: فسأله أن يَجعله عونًا على طاعته وبلاغًا إلَى مرضاته، ولا يَجعله قاطعًا لك عنه، ولا مُبعدًا عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه؛ ولا منعه كل ما يَمنعه لهوان عبده

عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يُمتحن بِهما عباده. قال الله تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليَّ، ولكنه ابتلاء منِّي، وامتحان له؛ أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخوِّل فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقَدَر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه عليَّ، ولكنه ابتلاء وامتحان منِّي له؛ أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق؟ أم يتسخط فيكون حظه السخط؟

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لَمْ أبتل عبدي بالغنَى لكرامته عليَّ، ولَمْ أبتله بالفقر لهوانه عليَّ. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وقدره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته؛ إنَّما يُكرم من يكرمه بِمعرفته ومَحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغنِي الحميد. فعَادت سعادة الدنيا والآخرة إلَى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

ثم ذكر القسم الثالث وهم من لهم نوع عبادة بلا استعانة.

والقسم الرابع فقال: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لَمْ يشأ لَمْ يكن، ولَمْ يَدُرْ مع ما يُحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به. فقضيت له، وأسعف بِها، سواء كانت أموالًا أو رياسة أو جاهًا عند الخلق، أو أحوالًا من كشف وتأثير وقوة وتَمكين، ولكن لا عاقبة له. فإنَّها من جنس الملك الظاهر والأموال لا تستلزم الإسلام، فضلًا عن الولاية والقرب من الله تعالى. فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن

استدل بشيء من ذلك على مَحبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يُحبه ويرضاه، ويكرهه ويسخطه. فالحال من الدنيا. فهو كالمُلك والمال، إن أعانك على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره؛ ألحقك بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه، ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

أقول: تأمل هذا الكلام النفيس في الأحوال من كشف وتأثير وما يسميه الناس خوارق وكرامات، فقد فتن بها خلق كثير وضل بشر لا يحصون، فضلوا بها وأضلوا عن سواء السبيل، وهذا في الأحوال الحقيقية فما بالك بالمختلق منها الذي يصنعه منتحلوه بحيل وتلبسات وأكاذيب مفتريات، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله العفو والعافية والمعافاة، ونحمده على ما عافانا مما ابتلى به كثيرًا من خلقه، ونسأله الهداية ودوامها والتوفيق، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال الشيخ: إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققًا بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إلا بأصلين عظيمين:

أحدهُما: متابعة الرسول ﷺ.

والثاني: الإخلاص لله المعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضًا إلَى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة لرسول الله ﷺ: وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حقيقة، فأعمالَهم كلها لله، وأقوالَهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة، والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمهم، بل قد عَدُّوا الناس

بِمنْزلة أصحاب القبور، لا يَملكون لَهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فالعمل لأجل هؤلاء وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بِهم ألبتة، بل من جاهل بشأنِهم وجاهل بربه.

فمن عرف الناس أنزلَهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

وكذلك أعمالَهم كلها وعباداتِهم موافقة لأمر الله، ولما يُحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بلى عباده بالموت والحياة لأجله.

قال الله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وجعل ما على الأرض زينة لَهَا ليختبرهم أيُّهم أحسن عملًا[١].

قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولَمْ يكن صوابًا لَمْ يقبل، وإذا كان صوابًا، ولَمْ يكن خالصًا لَمْ يُقبل، حَتَّى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: ما كان لله، والصواب: ما كان على السُّنَّة، وهذا هو المذكور فِي قوله تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وفِي قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، على متابعة أمره، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يُردَ عليه -أحوج ما هو إليه- هباءً منثورًا، وفِي

---

(١) يشير لقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وكلام الفضيل تفسير لها.

الصحيح عن النَّبِيِّ ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ**»[1]، وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدًا. فإن الله تعالَى إنَّما يُعبَد بأمره، لا بالآراء والأهواء.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة: فليس عمله موافقًا لشرع، ولا هو خالصًا للمعبود، كأعمال المتزينين للناس، المرائين لَهم بِما لَمْ يشرعه الله ولا رسوله، وهؤلاء شرار الخلق، وأمقتهم إلَى الله ﷻ، ولَهم أوفر نصيب من قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، يفرحون بِما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويُحبون أن يُحمدوا باتباع السُّنَّة والإخلاص.

وهذا الضرب يكثر فيمن انْحرف -من المنتسبين إلَى العلم والفقر والعبادة- عن الصراط المستقيم، فإنَّهم يرتكبون البدع والضلالات، والرياء والسمعة ويُحبون أن يُحمدوا بِما لَمْ يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مُخلص فِي أعماله، لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العبَّاد، والمنتسبين إلَى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقده قربة إلَى الله تعالى فهذا حاله، كمن يظن أن سَماع الْمكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة الَّتِي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. أمثال ذلك.

قلت: رحم الله الشيخ فأين المقلدون الذين يعبدون الله بآراء شيوخهم ويعرض عليهم كلام الله ورسوله فيعرضون عنه تقليدًا لمن نهاهم عن تقليدهم.

قال الشيخ: **الضرب الرابع**: من أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله؛ كطاعات المرائين، وكالرجل يقاتل رياء وحَمِيَّة وشجاعة، ويَحج ليقال،

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

ويقرأ القرآن ليقال. فهؤلاء أعمالَهم ظاهرها أعمال صالِحة مأمور بِها، لكنها غير صالِحة، فلا تقبل ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فكل أحد لَمْ يؤمر إلا بعبادة الله بِما أمر الله، وبالإخلاص لله فِي العبادة وهم أهل ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾. اهـ.

انتهى ما أردت تلخيصه من كلام هذا الإمام الجليل في معنى ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾، وهو لائق بشرح ما جاء في الحديث الذي ابتدأت الكلام به من قوله ﷺ: «**حق العباد على الله أن يعبدوه**». بقي الكلام على قوله: «**ولا يشركوا به شيئًا**». على آخر الحديث نرجئها إلى الكلمة التالية لبسط الكلام فيها على الشرك وأنواعه وما وقع الناس فيه منه وهم لا يشعرون، وجدالهم عنه وشبههم في ذلك مستعينين في ذلك بحول الله وقوته وتوفيقه وهدايته، ثم بكلام أئمة العلوم ونجوم الهداية وفحول البيان المستند إلى كلام الله وسنة رسول الله ﷺ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *